﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ
مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ
﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴾: ﴿ كَلَّآ ﴾ كلمة ردع، وزجر، ولعلها لم تقل لنبيهﷺ في القرآن كله إلا في هذا الموضع، والمشار إليه في قوله ﴿ إِنَّهَا ﴾: إما هذه الواقعة التي جرت، ففيها تذكرة. وإما أن المراد بذلك هذه الآيات التي تلوناها وأنزلناها، وهذا أقرب لدلالة ما بعدها .

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ ﴾: يعني فمن أراد أن يتعظ، ويدَّكر، فهاهي بين يديه. قال بعضهم: إن مرجع الضمير في قوله ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ إلى الله ﷻ، ولكن الأليق بالسياق أن يكون المراد هذه الآيات، بدلالة ما بعدها، لأنه قال ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾، فهذه التذكرة هي هذه الآيات المتلوة، التي حفظت هذه الواقعة، وبهذا نجمع بين القولين.

﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ ﴾: أي القرآن المتلو، في صحف مكرمة، يعني أنه مكتوب في صحف كريمة، شريفة .

﴿ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ ﴾: أي في منزلة عالية، رفيعة، بعيدة عن الدنس .

﴿ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ ﴾: قيل إن السفرة هم كتبة المصحف، يعني القراءكتبة الوحي، أصحاب رسول الله ﷺ، وإلى هذا ذهب قتادة، رحمه الله. وذهب ابن عباس، رضي الله عنهما، في الرواية المشهورة عنه، إلى أن المراد بالسفرة الملائكة، و روي من طريق آخر عنه أنهم أصحاب محمد ﷺ، وهي رواية قتادة عنه، والرواية الأخرى المقدمة، هي رواية العوفي عنه. والأقرب أن المراد بالسفرة الملائكة ، وإنما سمي الملائكة سفرة، لأنهم سفراء بين الله وبين أنبيائه .[١]

ووصفت هذه الصحف بأنها (مكرمة) و (مرفوعة) و (مطهرة) لأنها صحف الملائكة التي يستنسخون بها الوحي ويكتبونه فيها. فلا شك أن ما بأيدي الملائكة رفيع القدر، بعيد عن الدنس.

---

[١] تفسير الطبري (24/109).

﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ١٦﴾: وصف الله تعالى الملائكة بوصفين ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ﴾، كما قال في الآية الأخرى:﴿ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١﴾ والكريم هو الشريف، وأصل البر ما دل على كثرة الخير، فالبار هو كثير الخير. ولهذا سمي البَر بَراً لسعته . وقد وصف الله عباده الصالحين بأنهم أبرار، ولم يصفهم بأنهم بررة، كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾ [المطففين:٢٢]، أما الملائكة فقد وصفوا بأنهم بررة، لكثرة طاعتهم لله، قال الله ﷻ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾[الأنبياء:٢٠]، (لا يسئمون) ، (لا يستحسون) ، وقال: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾[التحريم:٦]عليهم صلوات الله وسلامه، وفي هذا ملحظ لطيف، ذكره الحافظ ابن كثير، رحمه الله، وهو أنه ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله، وأقواله، على السداد، والرشاد. فإذا كان الملائكة، سفراء الله إلى أنبيائه، الذين يحملون الصحف المكرمة، المرفوعة، المطهرة، هذا وصفهم﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴾، فينبغي لحامل القرآن من عباد الله، أن يكون على طريق الرشاد، وعلى سبيل السداد؛ احتراماً، وصوناً لهذا للكلام الذي بين جنبيه.

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾: هذا دعاء من الله ﷻ على الإنسان. والدعاء منه سبحانه حكم ولا يستقيم في هذا المقام أن نقول جنس الإنسان، بل ينبغي أن نخصه بالكافر. وقد لاحظ ابن عاشور، رحمه الله، أن ذكر الإنسان في القرآن المكي، غالباً ما يراد به الإنسان الكافر، كما في قول الله تعالى : (﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ ﴾ [العلق:٦].

فقوله ﴿قُتِلَ﴾ دعاء على الكافر بالقتل. والدعاء عليه بالقتل المراد به اللعن، لأن ذلك طرد، وإبعاد له عن رحمة الله.

وقوله : ﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴾ تحتمل (ما) معنيين :

أن تكون تعجبية: أي ما أشد كفره، فالله خلقه، ورزقه، وأعده، وأمده، ثم يكفر به! أو تكون استفهامية: يعني أي شيء أكفره؟ لماذا كفر؟ وكأنها تعجبية أوقع .

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ ﴾: هذا الاستفهام للتقرير؛ لأن الله سبحانه وتعالى أعلم، والمراد ما أصل خلقه؟

.

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾: والمراد هنا: من سِوى آدم عليه السلام، لأن آدم عليه السلام خلق من قبضة من تراب، والمراد بالنطفة: هو نطف المني ودفقته. هذا أصل خلق كل إنسان، سوى الأبوين؛ آدم وحواء، ما يقذفه الرجل في رحم الأنثى، يكون منتن الريح، يستحي من ذكره. وقد جاء العلم الحديث ليبين أن حال الإنسان أحقر حتى مما كان يدرك من مجرد الصورة الظاهرة للنطفة؛ فالإنسان يخلق من خلية لا ترى إلا بالمجاهر الدقيقة، فهذه النطفة، أو ال دفقة تحتوي على ملايين الحيوانات المنوية. فتأمل بداية خلق الإنسان! فما الذي يجعله يشمخ بأنفه، ويستنكف عن عبادة ربه؟

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بعد أن خلقه، أمده، وأعده، أعطاه الآلات، والأدوات التي يقدر فيها على الفعل، والكسب والحرث، والضرب في الأرض.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠﴾: قيل في معنى ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ قولان:

إما أن المراد بالسبيل: طريق خروجه من بطن أمه. وإلى هذا ذهب ابن عباس رضي الله عنهما [(٢)]. وهو أمر مدهش! فهذا الجنين الذي احتواه الرحم تسعة أشهر، يسهل الله تعالى مخرجه من هذه المخارج الضيقة! ويجري من التغيرات العضوية على الرحم، ومخرج الولد، ما يجعله يتسع، ليخرج منه هذا الكائن.

وقيل: المراد بالسبيل: طريق الحق أو الباطل. ومعنى ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ أي مهد له ذلك السبيل، وبين له الخير من الشر، كما قال في الآية الأخرى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل:٧] وقال ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [الليل:١٠] وقال ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [الإنسان:٣]. فهذه الآيات تؤيد المعنى الثاني، وإلى هذا ذهب مجاهد، رحمه الله [(٣)]، ويشهد له قول الله عز وجل: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [البلد: ١٠] يعني الطريقين؛ طريق الخير، وطريق الشر. ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ لأنه لا تعارض بينهما.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾: يعني بعد أن طوى هذا العمر، سالكاً طريق الخير، أو الشر أماته، لأن الله تعالى قضى بالموت على كل حي، حتى ملك الموت يموت، فلا يبقى إلا الله الواحد القهار. والموت أمر

---

(٢) تفسير الطبري (111/24).
(٣) تفسير الطبري (112/24).

وجودي، كما قال الله تعالى﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[الملك٢] فالموت إذاً أمر وجودي لأنه مخلوق.

ومعنى ﴿ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾ أي أمر بدفنه؛ وفي اللغة يقال " قابر " ويقال " مُقبر " فالقابر هو الذي يباشر الدفن، والمُقبر هو الذي يأمر بالدفن[٤]. فهنا قال: ﴿ فَأَقْبَرَهُۥ ﴾، ولم يقل " فقبره ". والدفن سنة كونية، ولهذا لما قتل ابن آدم الأول أخاه﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المائدة:٣١]، فلم يزل بنو آدم يقبرون موتاهم، إلا من طمس الله ﷻ فطرته ، من الذين يحرقون الموتى، لكنهم بعد إحراقهم للموتى يدفنون رمادهم .

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾: أي بعثه وأحياه بعد موته. وقوله﴿ إِذَا شَآءَ ﴾ ليس المراد أنه قد يشاء أن ينشره، وقد لا يشاء ذلك؛ لأنه لابد من البعث، وإنما المراد زمن بعثه، يعني إذا شاء أن ينشره أنشره في الوقت المعين.

ولو تأملنا في هذه الآيات، لوجدنا أن العطف يقع تارة (بثم) وتارة (بالفاء) فمن الناحية البلاغية، سنجد أن العطف جاء (بالفاء) فيما يقصد به التعقيب المباشر ، و(بثم) فيما يفصله عما قبله تراخي ، قال ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ أعطاه الآلات التي يقدر فيها على قضاء مصالحه، بعد ذلك قال: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ﴾ لأنه جرى بعد ذلك فاصل، سواء على القول الأول: أنه خروجه من رحم أمه؛ لأنه أخذ يترقى في الخلق من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى أن كسا العظام لحماً ، فأتى (بثم) لوجود فاصل زمني، أو على القول الثاني ؛ أنه الخير، والشر ، بأن يمضي عليه سنوات حتى يصبح مكلفاً، فهذا فاصل زمني يناسب أن يأتي بعده (بثم). ثم قال ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ ﴾ ، لأنه قد عاش ردحاً من الزمن، فناسب أن يأتي (بثم) التي تدل على تراخ وفاصل طويل، ثم قال: ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أتى (بالفاء) لأن الفاصل بين الموت والدفن فاصل قصير. ثم قال:﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أتى (بثم) لأن بين موت الإنسان وبعثه زمن طويل . فتأمل!

---

[٤] انظر: تاج، العروس لسان العرب ، الصحاح (مادة: ق–ب–ر).

﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾: أي ليس الأمر كما يظن ذلك الكافر المنكر للبعث، أنه أدى ما عليه، وغير ذلك، كلا! فإنه لم يؤدي حق الله الذي افترضه عليه .

الفوائد المستنبطة:

الفائدة الأولى: وصف القرءان بالتذكرة.

الفائدة الثانية: إثبات مشيئة العباد، وأفعالهم ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾، وفي هذا رد على الجبرية الذين يسلبون العبد مشيئته، وفعله. فالعبد له مشيئة حقيقية، لكن مشيئته داخلة تحت مشيئة الله ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

الفائدة الثالثة: كرامة كلام الله، وكرامة محله، وحملته.

الفائدة الرابعة: أن القرآن كلام الله، ليس كلام الملائكة، لقوله ﴿سَفَرَةٍ﴾ فوصفهم بالسفارة فمهمتهم النقل فقط. ففيه الرد على المعتزلة الذين قالوا إن القرآن كلام محمد، أو جبريل، وليس كلام الله الصادر منه.

الفائدة الخامسة: إثبات الملائكة، ووصفهم بالكرامة وكثرة البر .

الفائدة السادسة: ذم الكافر الجاحد، والتعجيب من حاله .

الفائدة السابعة: بيان أصل الإنسان المهين.

الفائدة الثامنة: بيان فضل الله على الإنسان قدراً، وشرعاً، أما قدراً فلقوله ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾﴾، وأما شرعاً فلقوله ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾ على القول إن السبيل المراد به طريق الحق والباطل .